



رحلة المفاهيم ودورها في تكامل العلوم والمعارف: «الاقتراح في أصول النحو» للسيوطي نموذجاً،
The journey of concepts and their role in the integration of science and
knowledge «Aliqtirah Fi usul Al nahu» by Alsuyuti as a model Research.

د.احمد الحياتي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - جهة درعة تافيلالت
(المغرب)

elahyani68@yahoo.fr

ملومات المقال	المخلص:
تاريخ الارسال: 2021/09/18 تاريخ القبول: 2021/09/24	يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على قضية هجرة المفاهيم العلمية، باعتبارها من السمات البارزة في الفكر الإسلامي. وتكمن أهمية دراسة هذه الظاهرة العلمية في كون المفاهيم مفاتيح العلوم، وأخذ حركيتها الداخلية والخارجية بعين الاعتبار يمكن من تجاوز النظرة التجزئية الضيقة في تناول قضايا التراث الإسلامي. وللوقوف على أبعاد الظاهرة، تمت المزاوجة بين الشق النظري والشق العملي، من خلال إيراد نماذج لرحلة المفاهيم من خلال كتاب: «الاقتراح في أصول النحو» للإمام السيوطي، مثالا حيا لملتقى مفاهيم علمية، هجرت من مجالات معرفية مختلفة، لتتفاعل إلى حد الانصهار في حقل النحو، وترسي أسس علم أصوله.
الكلمات المفتاحية: ✓ رحلة المفاهيم ✓ التكامل المعرفي. ✓ التداخل المعرفي. ✓ النظرة التجزئية. ✓ التراث الإسلامي.	Abstract : <i>This research sheds light on the issue of scientific concepts journey as an important feature in the Islamic thought. The importance of studying this scientific phenomenon is that concepts are the keys to sciences taking into account their internal and external mobility which helps to overcome the fragmentary narrow view in dealing with issues of the Islamic heritage. In order to show the dimensions of this phenomenon, the researcher combines both, the theoretical and the scientific research through the introduction of concepts journey samples in Alsuyuti book "Aliqtirah fi Usulalnahu » so that to meet the scientific concepts that migrated from various fields of knowledge to interact to the point of fusion in the field of grammar.</i>
Article info Received 18/09/2021 Accepted 24/09/2021	Keywords: ✓ concepts journeys: ✓ cognitive integration: ✓ cognitive interference: ✓ fragmentary view: ✓ Islamic heritage:

مقدمة:

تعتبر المفاهيم مفاتيح العلوم، لذلك جسد انتقالها من حقل معرفي إلى آخر، داخل الثقافة الإسلامية، وفيما بينها وبين غيرها من الثقافات، صورة جلية لظاهرة التداخل والتكامل بين العلوم والمعارف في التراث الإسلامي.

وقد كان لهجرة المفاهيم عظيم الأثر على الفكر الإسلامي. فبقدر ما يساهم المفهوم المهاجر في إثراء الثقافة والحقل العلمي المستقبل، بقدر ما يحتل أن ينقل إليهما الإشكالات الفكرية والمنهجية المرتبطة بالمجال العلمي، والبيئة الحضارية التي نشأ فيها. وهو ما وضع المشتغلين بالتراث الإسلامي أمام خيارين:

أولهما: حسن الاستفادة من الظاهرة في إغناء الفكر الإسلامي، مع ضرورة رسم حدود الفصل والوصل بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات المصدرة للمفاهيم من جهة. وبين المجالات العلمية داخل الحقل الإسلامي من جهة ثانية، بما يحقق التكامل بين العلوم الإسلامية، دون أن يبغى بعضها على بعض. ثانيهما: ترك الباب مشرعا للحركة الداخلية والخارجة للمفاهيم، مع ما يصحب ذلك مخاطر ما تحمله هذه من مضامين وافدة مرتبطة ببيئتها الأصلية، قد تكون ذات آثار سلبية على الثقافة والعلوم الإسلامية.

ونقصد من وراء البحث إلى تحقيق أمرين، أحدهما: توظيف ظاهرة رحلة المفاهيم في مد الجسور بين الحقول العلمية الإسلامية، قصد تجاوز النظرة التجزئية التي تتعامل مع علوم التراث كأنها جزر منعزلة، لا تربطها وحدة الأصل.

وثانيهما: حسن الانفتاح على الفكر الإنساني عن طريق الاقتباس الواعي للمفاهيم، بما ينسجم مع القيم الفكرية والحضارية للأمم، دون السقوط في مستنقع التبعية الفكرية والإلحاق الحضاري.

مقاربة جانب من ظاهرة تداخل وتكامل المعارف، من زاوية انتقال المفاهيم من ثقافة لأخرى، أو بين الحقول العلمية المختلفة في الثقافة الواحدة، اقتضى تسليط الضوء على جذور ظاهرة ترحال المفاهيم في الفكر الإسلامي في المحور الأول. ذكر أسباب الظاهرة في المحور الثاني، يليه إيراد نموذج عملي لانتقال المفاهيم من خلال كتاب: «الاقتراح في أصول النحو» لجلال الدين السيوطي في المحور الثالث. مع التنبيه إلى أن الثمار الإيجابية لعملية نقل المفاهيم، لا يجب أن تنسina ما قد يكتنف هذه الظاهرة من إشكالات علمية وحضارية في المحور الرابع. وختمت الموضوع بخلاصة مركزة لأهم نتائجها.

أولا . رحلة المفاهيم العلمية: جذور الظاهرة في الفكر الإسلامي.

الوعي بظاهرة رحلة المفاهيم في التراث الإسلامي ليس أمرا جديدا، حيث نجد الموضوع حاضرا في كتابات العلماء المسلمين القدماء كما هو عند المعاصرين، وإن تناولها كل فريق من زوايا مختلفة.

وقد تنبه القدماء إلى مسألة تداخل الحقول المعرفية، فعملوا على تصنيف العلوم، وترتيبها، بغية رسم الحدود بين علم وعلم، وخاصة المتقارب منها، مراعاة لما بين مبادئها من تقاطع بحكم وحدة الأصل. فقسموا العلوم الإسلامية إلى قسمين: علوم مقاصد وعلوم آلة. عن هذا التقسيم يقول القنوجي: "العلوم إما آلية أو غير آلية، لأنها إما تكون

في نفسها آلة لتحصيل شيء بل كانت مقصودة بذواتها، أو تكون آلة له غير مقصودة في ذاتها، الثانية تسمى آلية والأولى غير آلية¹. والغاية من ذلك أن يعلم أن علوم الغاية مطلوبة لذاتها، أما علوم الآلة فمطلوبة بقدر خدمتها لعلوم المقاصد، ولا يجب أن تتحول لغاية في ذاتها. ثم فصلوا في مبادئ كل علم على حدة، وبينوا موضوعه ومقاصده ومفاهيمه ومنهجه... هذا حتى تتضح حدود كل مجال علمي، ولا تختلط مبادئه بمبادئ غيره. ورغم التصنيف والترتيب الدقيق، فقد تنبه الأولون إلى ما يطرحه تداخل العلوم من إشكالات منهجية، من قبيل تقاطع علمين في موضوع واحد، يقول التهانوي: "قالوا الشيء الواحد لا يكون موضوعاً للعلمين، وقال صدر الشريعة هذا غير ممتنع، فإن الشيء الواحد له أعراض متنوعة، ففي كل علم يبحث عن بعض منها"².

ومن الدارسين المعاصرين الذين كشفوا جانباً من أبعاد الظاهرة، الفيلسوف الإسلامي الدكتور طه عبد الرحمن، حيث يشير إلى إقرار العلماء بمشروعية تداخل وتفاعل العلوم فيما بينها، بقوله: "أما عن درجة تفاعل العلوم التراثية، فلم يكتف علماء الإسلام بالقول بتدرج العلوم فيما بينها، بل أقروا بمشروعية تفاعل العلوم، وتشابك العلاقات فيما بينها، فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية... ولم يقف هذا التفاعل عند حدود انتقال علوم الآلة إلى علوم المقاصد، بل تعدى ذلك إلى انتقال علوم المقاصد ذاتها إلى علوم الآلة"³.

تداخل العلوم إذن، من حيث المواضيع والمقاصد والمناهج والمفاهيم، ظاهرة علمية لازمت نشوء وتطور وتفاعل العلوم في الحضارة الإسلامية، وشكلت سمة بارزة للفكر الإسلامي في مختلف الحقول العلمية عبر العصور، مما يجعلها ظاهرة جديرة بالدراسة، لفهم أبعادها والوقوف على بعض أسبابها، ومعرفة تأثيرها على تفاعل وتطور العلوم. ونقتصر في هذا البحث على ظاهرة انتقال المفاهيم مثلاً بارزاً لتداخل وتكامل العلوم في التراث الإسلامي.

ثانياً. من أسباب انتقال المفاهيم العلمية من حقل معرفي لآخر:

انتقال المفاهيم من علم لآخر، ومن لغة لأخرى، ومن ثقافة لأخرى، ظاهرة إنسانية عامة، ترجع إلى أسباب مشتركة بين كل الثقافات والحضارات الإنسانية، ولها أسباب خاصة ترجع إلى طبيعة الثقافة الإسلامية. لعل أهم هذه الأسباب:

¹ محمد بن علي التهانوي، 1996م، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، تحقيق: د. علي دحروج، 44/1.

² التهانوي، المرجع السابق: 10/1.

³ الدكتور طه عبد الرحمن (د. ت)، تجديد المنهج في تقويم التراث، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ص: 90.

1. مركزية نصوص الوحي في الفكر الإسلامي:

وترجع جذور ظاهرة تداخل وتكامل العلوم والمعارف في الفكر الإسلامي إلى طبيعة الحضارة الإسلامية التي توصف بأنها حضارة النص. فالعلوم الإسلامية نشأت لخدمة الوحي، إن هي إلا توثيق لنصوص الوحي، أو تفسير لها، أو استنباط منها، أو تععيد لمناهج التعامل معها. ويورد الإمام ابن عطية مجال تفسير القرآن الكريم مثالا حيا لحقل تتلاقى فيه كل العلوم وتتظافر لخدمته، يقول: "إذ كتاب الله عز وجل لا يتفسر إلا بتصريف جميع العلوم فيه"¹.

وقد أورثت وحدة المنشأ هذه الدوران حول النص الشرعي. ووحدة الهدف العام. خدمة هذا النص الشرعي. حفظا وفهما وتنزيلا، أورثت العلوم الشرعية تكاملا وتداخلا في حقولها المعرفية، تجسد في تشابك مواضيعها حيناً، واشترакها في المفاهيم حيناً آخر، والتقاطع في المناهج تارة، والالتقاء في المقاصد والغايات تارة أخرى.

2. عالمية الإسلام:

رغم كون اللغة العربية لغة الوحي، إلا أن كلا من القرآن والسنة انفتحا إراديا على لغات غير العربية، مع كونهما لم يستنفذا كل الألفاظ العربية، يقول أبو منصور الجواليقي في مقدمة «المعرب»: "هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم جميعا، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها، ليُعرف الدخيل من الصريح"².

وهذه نماذج لألفاظ أعجمية وردت في القرآن والسنة:

أ. مثال من القرآن الكريم: "قال يونس بن حبيب وأكثر النحويين: جهنم اسم للنار التي يعذب بها الله في الآخرة. وهي أعجمية"³.

ب. مثال من السنة: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيتها إذا طعنت تفجر دمًا، اللون لون الدم والعرف عرف المسك»⁴. جاء في (المعرب): "والمسك: الطيب فارسي مُعَرَّب"⁵.

¹ ابن عطية الأندلسي، 1422هـ. 2001م، المخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، 5/1.

² أبو منصور الجواليقي، 1389هـ. 1969م، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، القاهرة، دار الكتب، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ص: 51.

³ أبو منصور الجواليقي، المرجع السابق، ص: 155.

⁴ محمد بن إسماعيل البخاري، 1423هـ. 2002م، الجامع الصحيح، دمشق دار ابن كثير، الطبعة الولي، حديث رقم: 235.

⁵ أبو منصور الجواليقي، المرجع السابق، ص: 373.

انتقال المفاهيم إذن لم يقتصر على لغة التخاطب أو الشعر أو النثر، بل تعداها إلى نصوص الوحي، مما يؤكد أن تداخل المفاهيم بين اللغات والعلوم، سنة الله في خلقه.

3. موسوعية العلماء:

مكن التكوين الموسوعي الكثير من العلماء من نقل علوم ومفاهيم ومناهج، من مجالاتها الأصلية إلى حقول علمية مختلفة عن منشئها الأصلي. ويعد جلال الدين السيوطي: 911.849هـ. من أجل العلماء، الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية، فهو عالم موسوعي، لم يترك موضوعاً في حقول المعرفة إلا تناوله، فمن علوم قرآنية وحديثية وفقهية، إلى علوم لغوية ونحوية إلى علوم في التصوف والتاريخ والفلسفة، إلى غير ذلك من مختلف العلوم التي عرفت في عصره. وقد عبر السيوطي عن مبلغ ثقافته بقوله: "ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة"¹. وتشهد آثاره التي يصعب إحصاؤها لكثرتها على تنوع معارفه وشمول فكره. فقد بلغت مصنفاته الستمائة، من مختلف الأطياف والمواضيع. يقول رحمه الله: "ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها - لقدرتُ على ذلك من فضل الله"².

ومن أبرز المؤلفات التي عكست سعة الأفق المعرفي للإمام السيوطي، وجسدت بحق دور موسوعية العالم في انتقال المفاهيم العلمية بين الحقول المعرفية المختلفة، كتابه: «الاقتراح في أصول النحو» حيث كان تبحر الإمام وراء توظيفه مفاهيم من مجالات علمية شتى في مؤلفه. وقد مكنت قراءته من الوقوف على صورة نموذجية لتقاطع مفاهيم علمية أصولية وحديثية وفقهية، ومن علم القراءات، وهي حقول شرعية، إلى علم أصول النحو، وهو من حقول اللغة، في تناغم وتكامل بين هذه المفاهيم المختلفة، من غير عوج. وهو ما سنورد نماذج له في المحور الموالي.

ثانياً. نماذج لانتقال المفاهيم من علوم شرعية إلى علم أصول النحو من خلال كتاب «الاقتراح في أصول النحو» لجلال الدين السيوطي.

نقل الجلال السيوطي في إشارة لإدراكه . رحمه الله . لقضية تداخل العلوم ورحلة المفاهيم بينها، عن ابن الفرخان "صاحب المستوفي": كل علم، فبعضه مأخوذ بالسماع والنصوص، وبعضه بالاستنباط والقياس، وبعضه بالانتزاع من علم آخر... والنحو: بعضه مسموع مأخوذ من العرب، وبعضه مستنبط بالفكر والروية، وهو التعليقات، وبعضه مأخوذ من صناعة أخرى، كقولهم: الحرف الذي تختلس حركته في حكم المتحرك لا الساكن، فإنه مأخوذ من

¹ جلال الدين السيوطي، 1387هـ. 1967م، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 338/1.

² جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، 339/1.

علم العروض. وكقولهم: الحركات أنواع: صاعد عال، ومنحدر سافل، ومتوسط بينهما، فإنه مأخوذ من صناعة الموسيقى¹.

كما نقل عن أبي حيان في "«شرح التسهيل» (شرح تسهيل الفوائد لابن مالك): العجمي عندنا هو كل ما نقل إلى اللسان العربي من لسان غيره، سواء كان من لغة الفرس، أو الروم، أو الحبش، أو الهند، أو البربر، أو غير ذلك².

مما يدل على أن مسألة انتقال المفاهيم وتداخل العلوم، كانت حاضرة عند الإمام السيوطي، وعند من سبقه من العلماء، من نقل آراءهم في هذا الباب. أمر يكتشفه قارئ كتابه «الاقتراح» دون كبير عناء. فالمؤلف يصرح بهذا التداخل في غير ما موضع من كتابه. وهو ما سنقف عليه من خلال عرض نماذج لتداخل العلوم وانتقال المفاهيم، في الخور الموالي.

1. انتقال مفاهيم أصول الفقه إلى أصول النحو:

يعتبر مجال أصول الفقه من أكثر الحقول الشرعية التي استمد منها الجلال السيوطي المفاهيم لمعالجة قضايا أصول النحو. ففيما يتعلق بالتسمية: يقول، رحمه الله، عن العلم الذي هو بصدد التأليف فيه: "وهو «أصول النحو» الذي هو بالنسبة للنحو كأصول الفقه بالنسبة للفقه"³.

أما عن منهجه في التأليف، فيقول: "ورتبته على ترتيب أصول الفقه، في الأبواب والفصول والتراجم"⁴.

كما جاء تعريفه للعلم قياساً على تعريف أصول الفقه، يقول: "أصول النحو: علم يبحث فيه عن أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلته، وكيفية الاستدلال بها، وحال المستدل"⁵.

وما لا تخطئه العين، استعارة المفاهيم الأصولية في التعريف: أدلة، الإجمالية، الاستدلال، المستدل.

هذا التداخل في مفاهيم التعريفين. الأصولي والنحوي. اقتضته مناسبة بين العلمين، بينها الجلال السيوطي فيما نقل عن الأنباري في «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»: "فإن بينهما (أصول النحو وأصول الفقه) من المناسبة ما لا خفاء به، لأن النحو معقول من منقول، كما أن الفقه معقول من منقول"⁶.

¹ جلال الدين السيوطي، 1428هـ. 2006م، الاقتراح في أصول النحو، دمشق، دار البيروني، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الحكيم عطية. ص: 80.

² جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 36.

³ جلال الدين السيوطي، مقدمة المرجع السابق، ص: 15.

⁴ جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص: 16.

⁵ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 21.

⁶ عبد الرحمن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، 1405هـ. 1985م، الزرقاء. الأردن، الطبعة الثالثة، مكتبة المنار، تحقيق: إبراهيم السامرائي. ص: 76.

ولم تقف عملية نقل المفاهيم من حقل أصول الفقه إلى أصول النحو، عند حدود التعريف، إذ كلما تعمقنا في مباحث الكتاب، نجد الظاهرة أكثر حضوراً.

ففي باب بيان أدلة النحو يقول: "أدلة النحو الغالبة أربعة: السماع والإجماع والقياس واستصحاب حال... وكل من الاستصحاب والقياس لا بد له من دليل من السماع، كما هما في الفقه كذلك"¹.

بمقارنة بسيطة مع أدلة أصول الفقه: "الأدلة الشرعية المتفق عليها أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس"². يتكشف التشابه إلى حد التطابق بين المفاهيم المستعملة هنا وهناك. ولنزيد المسألة توضيحاً، نورد تعريفه لدليلي السماع والاستصحاب، لنرى أن التداخل تجاوز نقل المفاهيم إلى تعريف المفاهيم نفسها.

ففي تعريف دليل السماع، قال: "وأعني به: ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمّل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه، وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين، نظماً ونشراً، عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بد في كل منها من الثبوت"³.

و في تعريف دليل الاستصحاب: نقل عن ابن الأنباري قوله الاستصحاب: "هو إبقاء حال اللفظ على ما يستحقه في الأصل عند عدم دليل النقل عن الأصل"⁴.

يكاد تعريف الدليلين يتطابقان مع تعريفيهما الأصوليين، إذا استثنينا إضافة اللغة في التعريف الأول وإضافة "عدم دليل النقل عن الأصل" في التعريف الثاني.

وفي تطبيق عملي لأصل الاستصحاب، قال: "قلت: والمسائل التي استدل فيها النحاة بالأصل كثيرة جداً لا تحصى، كقولهم: الأصل في البناء السكون إلا لموجب تحريك، والأصل في الحروف عدم الزيادة حتى يقوم دليل عليها من الاشتقاق ونحوه..."⁵.

هذا غيض من فيض في باب انتقال المفاهيم الأصولية إلى حقل النحو. وإن كان للمفاهيم الأصولية نصيب الأسد في عملية النقل، فإن حقولاً علمية أخرى، لها حظها المعترف، أهمها علم أصول الحديث، الذي هاجرت مفاهيمه لإغناء حقل اللغة، كما سنبين في المحور الموالي.

¹ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 21، 22.

² عبد الوهاب خلاف (د ت) علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة. شباب الأزهر، ص: 20.

³ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 39.

⁴ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 136.

⁵ جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص: 137.

2. انتقال المفاهيم الحديثية إلى مجال أصول النحو:

يقول الجلال السيوطي في تعريف نقل اللغة في أصول النحو: "النقل هو: الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة. وعلى هذا يخرج ما جاء من كلام المولدين وغيرهم وما جاء شاذاً في كلامهم... وهو ينقسم إلى تواتر وآحاد:

أما التواتر: فلغة القرآن، وما تواتر من السنة، وكلام العرب، وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم. وأما الآحاد: فما تفرد بنقله بعض أهل اللغة، ولم يوجد فيه شرط التواتر، وهو دليل مأخوذ به، والأكثر على أنه يفيد الظن¹. فاستعار في تعريف نقل اللغة، نفس مفاهيم نقل الحديث: الصحيح، الشاذ، التواتر، الآحاد، يفيد العلم، يفيد الظن... ما يؤكد التلاحق الحاصل بين العلمين، بفضل تداخل مفاهيمهما.

3. انتقال المفاهيم علم القراءات إلى أصول النحو:

ومما أورده في باب «ما عيب من قراءة بعض القراء»: "وكان قوم من النحاة المتقدمين يعيرون على عاصم وحمزة وابن عامر، قراءات بعيدة عن العربية... وقد رد المتأخرون، منهم ابن مالك، على من عاب عليهم ذلك أبلغ رد، واختار ما وردت به قراءاتهم في العربية، وإن منعه الأكثرون، مستدلاً به. ومن ذلك احتجاجه على جواز العطف على الضمير المجزور من غير إعادة الجار بقراءة حمزة: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾²3".

تداخل كل هذه الحقول العلمية مع أصول النحو من خلال استعارة المفاهيم، يساهم ولا شك في تطور هذا العلم. لكن هجرة المفاهيم ليس أمراً إيجابياً على إطلاقه، إذ تكتنفه مخاطر تستوجب الاحتياط في النقل من علم لعلم، ومن ثقافة لثقافة، لتفادي إشكالات فكرية ومنهجية قد تصاحبه، وهي موضوع المحور الأخير.

ثالثاً. انتقال المفاهيم العلمية بين مقصد التكامل والإشكالات الفكرية والمنهجية.

1. تحقيق التكامل:

ساهم انتقال المفاهيم في تفاعل العلوم، وفي إثراء بعض الفنون لبعض، وفي توجيه بعضها مسار البعض الآخر، وهو ما كان له الفضل في إرساء النظرة الشمولية للعلوم الشرعية، المنبثقة من وحدة الرؤية الإسلامية، القائمة على وحدة المعرفة ووحدة المصدر، يقوله ابن حزم: "العلوم كلها متعلق بعضها ببعض، كما بينا قبل، ومحتاج بعضها إلى بعض"⁴. يساعد هذا التلاقي على تجاوز النظرة التجزئية التي تقف عائقاً أمام تطور العلوم وتكاملها. وقد عمل انتقال المفاهيم إلى

¹ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 7170.

² سورة النساء، من الآية: 1.

³ جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص: 40.

⁴ ابن حزم، مراتب العلوم، 90/4.

مد الجسور بين الحقول الفكرية والعلمية، لتجاوز آثار التخصص الضيق، إلى أفق التكامل والتفاعل المثمر. فهذا هو الإمام ابن حزم الأندلسي يتناول مسألة التداخل والتكامل من زاوية ترابط العلوم وحاجة بعضها إلى بعض.

2. إشكالات انتقال المفاهيم قديماً:

الحذر من مخاطر نقل إشكالات علم إلى علم آخر. مخاطر انتبه إليها المتقدمون، فقد نقل أبو منصور الجواليقي عن أبي بكر بن السراج في «رسالته في الاشتقاق» (في باب ما يجب على الناظر في الاشتقاق أن يتوقاه ويحترس منه): "مما ينبغي أن يُحذَرَ منه كل الحذر أن يُشتَقَّ من لغة العرب لشيء من لغة العجم، فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطير ولد الحوت"¹.

هذه مخاطر انتقال المفاهيم في مجال اللغة، فما بالنا إذا تعلق الأمر بمجال العقيدة، أس الأسس وملاك أمر الدين كله، يقول الشيخ الغزالي: كان أشد النواحي الدينية استقبالا للغزو الأجنبي علمي الكلام والتصوف، ولا يصعب أن تميز الدخيل من الأصيل في هذه الميادين، إلا أن المزج يبلغ أحيانا درجة كبيرة من المهارة، فإنكار المعتزلة لصفات المعاني تأثروا فيه بتفسير أرسطو للوحدانية المطلقة، لقد ظل أرسطو يشرح الوجود الإلهي الأعلى، وينزه هذا الوجود من كل شيء إلا التأمل الذاتي، فالإله . من ذاته . يعلم ويقدر ولا شيء غير الذات"².

وإذا كان المثال الذي أورده الشيخ صورة جلية لأثر الفلسفة اليونانية على عقيدة المعتزلة، فإن الشيخ محيي الدين ابن عربي أدخل وحدة الوجود من الفكر اليوناني نفسه في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾³، يقول: "فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، فما عُبدَ غير الله في كل معبود"⁴.

ورغم ما أثاره انتقال المفاهيم فيما بين العلوم الإسلامية، أو هجرتها من سياقات ثقافية وحضارية مختلفة، من إشكالات فكرية وعقدية، مزقت وحدة الصف الإسلامي، وفرق الأمة الواحدة في الماضي إلى ملل ونحل، فإن الإشكال ما زال قائماً إلى عصرنا هذا.

ويكون تأثير انتقال المفاهيم أخطر عندما تتاجر من سياق حضاري مغاير، مفاهيمه غير مفاهيمنا وقيمه مناقضة لقيمنا، وهو واقع العلاقة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، في مفاهيمه ومناهجه.

¹ أبو منصور الجواليقي، العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، مقدمة الكتاب، ص: 51. 52.

² محمد الغزالي(د. ت) الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، القاهرة، طبعة دار الشروق، ص: 32.

³ سورة نوح، الآية: 23.

⁴ محيي الدين ابن عربي، 1989م، فصوص الحكم، بيروت، دار الكتاب العربي، تعليق: د. أبو العلاء عفيفي. ص72.

3. الإشكالات المعاصرة لانتقال المفاهيم:

عواقب نقل المفاهيم وما يرافقه من إشكالات، انتبه إليها المعاصرون أيضاً، فقد نبه الدكتور طه عبد الرحمن إلى الأمر بقوله: "بل أدى ذلك التفاعل إلى امتزاج مصطلحات العلم الواحد بمصطلحات غيره من العلوم، إلى حد تبدو بعض الإشكالات المعرفية التي يولدها هذا العلم كما لو كانت تنتسب إلى الإشكالات المعرفية التي تدخل في

علم غيره، وخير شاهد على ذلك، ما نجده من اختلاط التصورات الفلسفية بالمفاهيم الكلامية، واختلاطها بالمعاني الصوفية، ومن امتزاج مصطلحات الجدل بمصطلحات جل العلوم الإسلامية، مثل الفقه وعلم الكلام والبلاغة"¹.

وتزداد خطورة انتقال المفاهيم من علم لعلم إذا اختلفت الخلفية الدينية والحضائية، يوضح الدكتور المسيري مكان هذه الخطورة في عدم حياد المفاهيم، بما تحمله من رؤى ونماذج إدراكية، مرتبطة ببساقها الثقافي ومنشئها الفلسفي، إذ يقول: "المصطلحات ليست بريئة ولا محايدة، بل تعبر عن رؤى متكاملة ونماذج إدراكية معرفية. ومن ثم لا بد أن يقوم الباحث بعملية تفكيك للمصطلح ليصل إلى المفهوم الكامن وراءه"².

ومن ذلك نقل أركون لمفهوم «تاريخية النص الديني» من الساق الحضاري والديني المسيحي إلى السياق الحضاري الإسلامي، يقول: "الإسلام كبقية الأديان في الخضوع للتاريخية التي خضعت لها المسيحية، إذ إن الإسلام لا يختلف عن المسيحية في كونه يقع ضمن الإطار المعرفي للقرون الوسطى"³.

وكلا محاولتي النقل، عند المعتزلة وابن عربي قديما، وعند أركون حديثا، أثارت ولا تزال تثير إشكالات فكرية وعقدية، يتردد صداها إلى يوم الناس هذا.

خاتمة:

انتقال المفاهيم من علم لآخر، داخل نفس الثقافة، وانتقالها من ثقافة لأخرى، سنة الله في خلقه، وهي تجسيد عملي لوحدة الخالق، من خلال تشابه آياته في الأنفس والآفاق، كما ترجع إلى وحدة الأصل الإنساني، وخاصة قواعد النظر العقلي وأصول التفكير المنهجي، النابع من الفطرة الإلهية كحد أدنى مشترك بين الناس جميعا، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وهو خير دليل على عالمية ظاهرة ترحال المفاهيم بين الحقول العلمية المختلفة، في كل الثقافات والحضارات، وقد أوردت «ISABELLE STENGERS» في كتابها: «من علم لآخر: مفاهيم رحالة»: «D'une science à

¹ د. طه عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 90.

² د. عبد الوهاب المسيري، 2001م، العلم من منظور غربي، القاهرة، طبعة دار الهلال. ص: 278.

³ د. محمد أركون، 1998م، «قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الإسلام اليوم؟» بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ترجمة: هاشم صالح، ص: 194.

«l'autre. Des concepts nomades» أوردت نماذج لمجموعة من المفاهيم الأكثر انتقالاً بين الحقول العلمية، والمجسدة للتداخل والتكامل بين العلوم والمعارف، مثل مفهوم «العلية»، تقول: "حيث إن كل العلوم تفترض مفهوماً «العلية»، إلا أن العلية تختلف من علم لآخر"¹.

ولما كان الحق ضالة المسلم، فأنى وجد ما يخدم رسالته ولا يناقض قيمه وأصوله فهو أولى به. يقول أبو يعقوب الكندي في صدر هذه التجربة الحضارية: «ينبغي أن يعظم شكرنا للآتين ييسر الحق فضلاً عما أتى بكثير من الحق، إذ أشركونا في ثمار فكرهم، وسهلوا لنا المطالب... وينبغي ألا نستحي من استحسان الحق، واقتفاء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية والأمم المبينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق»².

لكن لإفادة من هذا القانون الإلهي، لا ينافي الحذر مما تحمله المفاهيم من قيم حضارية وبنى فكرية وآليات منهجية، قد تصطدم بالثوابت العقدية والمبادئ الخلقية والقيم الحضارية، عند نقلها إلى السياق الحضاري الإسلامي دون تمحيصها وغربلتها، مما يستدعي النقل الواعي، وفق المعايير الحضارية والرؤية الشرعية، قصد الإفادة منها لإثراء العلوم وتطوير الفكر، دون نقل إشكالات علمية وحضارية، قد تؤدي إلى نتائج عكسية، تنحرف معها العلوم عن مقاصدها وأهدافها الأصلية.

¹ ISABELLE STENGERS, D'une science à l'autre: Des concepts nomades, p:168.

² يعقوب بن إسحاق الكندي، 1965م، رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، بغداد، مطبعة شفيق، تحقيق زكريا يوسف، ص: 102.

لائحة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، 2010م، المحمدية، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
2. محمد بن إسماعيل البخاري، 1423هـ. 2002م، الجامع الصحيح، دمشق دار ابن كثير، الطبعة الأولى.
3. جلال الدين السيوطي، 1428هـ 2006م، الاقتراح في أصول النحو، دمشق، دار البيروتي، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الحكيم عطية.
4. جلال الدين السيوطي، 1387هـ. 1967م، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
5. أبو منصور الجواليقي، 1389هـ. 1969م، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، القاهرة، مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
6. أبو محمد علي ابن حزم، 1987م، مراتب العلوم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية. تحقيق: إحسان عباس.
7. ابن عطية الأندلسي، 1422هـ. 2001م، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
8. محيي الدين ابن عربي، 2016م، فصوص الحكم، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، تعليق: د. أبو العلاء عفيفي.
9. محمد بن علي التهانوي، 1996م، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، تحقيق: د. علي دحروج.
10. أبو الطيب محمد صديق بن حسن القنوجي، 1423هـ. 2002م، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى.
11. يعقوب بن إسحاق الكندي، 1965م، رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، بغداد، مطبعة شفيق، تحقيق زكريا يوسف.
12. عبد الوهاب خلاف 1947م، علم أصول الفقه، القاهرة، مكتبة الدعوة. شباب الأزهر.
13. الشيخ محمد الغزالي، 1421هـ 2000م، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، القاهرة، الطبعة الأولى، دار الشروق، ص: 32.
14. الدكتور عبد الوهاب المسيري، 2001م، العلم من منظور غربي، القاهرة، طبعة دار الهلال.

15. الدكتور طه عبد الرحمن، 2012م، تحديد المنهج في تقويم التراث، بيروت، الطبعة الأولى: المركز الثقافي العربي.

16. الدكتور محمد أركون، 1998م، قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الإسلام اليوم؟ بيروت، الطبعة الأولى: دار الطليعة للطباعة والنشر، ترجمة: هاشم صالح.

17- ISABELLE STENGERS, 1987, D'une science à l'autre: Des concepts nomades, Paris, Éditions Seuil.